﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إزدافُ الوعيدِ الإجماليّ من الخبير البصير بالوعيدِ التّفصيليّ بسوء المصير

لَمّا أجابَ اللهُ ﷻ عن شُبُهاتِ القومِ في إنكارِ النُّبوَّة، وأَرْدَفَها بالوعيدِ الإجماليّ، وهو قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾ [الإسراء: 96]، ذكرَ بعدَه في هذه الآيةِ الكريمة الوعيدَ الشَّديدَ على سبيلِ التَّفصيل[1]، فإنَّ من شأنِ التّفصيل بعد الإجمال، تقويّة الخطاب في سبيل إقامة الحُجّة على المُنكِرين، ففي الآية السّابقة جاء التّهديد بشهادة الله تعالى على المُنكِرين، وشهادةُ الله كافية في بيان صدق النّبيّ ﷺ، واستحقاقِ الكافرين الجزاءَ الأوفى، فكان موقع هذه الآية من السّابقة بيان التّفصيل في موقف النّاس من الهداية والضّلالة، على سبيل التّرغيب والتّرهيب؛ لاكتمال عناصر الدّعوة إلى التّوحيد.

ونضيف أنّ الآيات الّتي سبقت هذه الآية، قد تكشّفت عن مُنكرٍ من قول المشركين وزورٍ، حيث عموا وصمّوا، فلم يروا من آيات القرآن إشراقها، ولا من بيّنات النّبوّة نصاعتها، بل ندبوا أنفسهم للاستهزاء الأخرق، والقال الأحمق، فراحوا يتحدّون الرّسول المُبلِّغ، بما تقترحه أهواؤهم السّقيمة من طلبهم معجزاتٍ تعجيزيّةً ماكرةً، فناسب ذلك نزول قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾، ليكون السّياق هاهنا مُكرّسًا للكشف في هذا المجال الدّلاليّ عن واقع هؤلاء المُشركين، نفسيًّا وعقائديًّا،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 411.

مُنبئًا بأنّهم في صَمَمٍ عن الهُدى، وأنّهم لا خير منهم يُرتجى، ولو علم فيهم خيرًا لهداهم، ولكنّهم آثروا مسلك التّحدّي وسبيل المشاقّة، فآلوا إلى سوء المصير[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَهْدِ﴾ ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾: هَدَى يهدي هدايةً، والهدايةُ: دلالةٌ بلُطف، وهَدَيتُه الطَّريقَ هدايةً؛ أيْ: تقدَّمتُه لِأُرشدَه، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلك هادٍ، والهُدَى خلافُ الضَّلالة، قالَ تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: 15][2]، يقول الجوهريُّ: ورد (هدى) في الكتاب العزيز على ثلاثة أوجه: هدى بنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: 10]، و(هدى) باللّام؛ كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس: 35]، وهدى بـ(إلى)؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: 22][3]، ويُقالُ: (المُهتدي) لمَن يقتدي بعالِمٍ نحو: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: 104]، تنبيهًا أنَّهم لا يعلمونَ بأنفُسِهم ولا يقتدونَ بعالِم، فالهدايةُ تكونُ بالاقْتداء[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾؛ أيْ: مَن يُرِدِ اللّهُ هدايتَه فهو المهتدي إلى الحقِّ أو إلى كلِّ مطلوب[5].

2) ﴿يُضْلِلْ﴾ (ضلل) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحد، وهو ضياعُ الشَّيءِ وذَهابُه في غير حقِّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ لُغَتان، وكلُّ جائرٍ عنِ القَصْدِ ضالّ، والضَّلالُ والضَّلالةُ بمعنًى؛ وهو العدولُ عن الطَّريقِ المستقيم[6]، قالَ تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: 7]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾؛ أيْ: يُرِدْ إضْلالَه عن الحقِّ[7]، والضّلال والضّلالة: ضدّ الرّشاد، وقد ضللتُ أضلّ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ﴾ [سبأ: 50]، فهذه لغة نجد؛ وهي الفصيحة، وتضليل الرّجل: أن تنسبه إلى

(1) عبد الكريم الخطيب: التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 553.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (هدى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هدى).
(4) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 361.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(7) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 361.

الضّلال، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧﴾ [القمر: 47]؛ أيْ: في هلاك[1]، وضلّ عَمَلي؛ أَيْ: حاد عن الحقّ، ومَن عصى الله فقد ضلّ، قال الشّاعر في شربه الخمر:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حتَّى ضَلَّ عَقْلي *** كَذاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بالعُقولِ[2]

3) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُرْب، من ذلك: الوَلْيُ: القُرْب، ومن البابِ: المَوْلى: المُعتِقُ والمُعتَقُ، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمّ، والنّاصرُ، والجار، وكلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخَرَ فهو وليُّه[3]، والوِلايةُ[4]: النُّصرة، والولايةُ: تولّي الأمر، وقيل: هما واحد، نحو: الدَّلالةُ والدِّلالة، والوليُّ والمَوْلى يُستعملانِ في ذلك، كلُّ واحدٍ منهما يُقالُ في معنَى الفاعل؛ أي: الموالي، وفي معنَى المفعول؛ أي: الموالَى، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257][5]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ أيْ: أنصارًا[6].

4) ﴿وُجُوهِهِمۡ﴾: (وجه) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على مقابلةِ لشيء، وأصلُ الوجْهِ الجارحة، قال تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ [إبراهيم: 50]، ولَمّا كان الوجْهُ أوَّلَ ما يستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهرِ البَدَنِ اسْتُعمِلَ في مُستقبَلِ كلِّ شيء، وفي أَشْرَفِه ومَبْدئه، فقيل: وجْهُ كذا، ووجْهُ النَّهار، وربَّما عُبِّرَ عن الذّاتِ بالوجه[7]، قالَ ﷻ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: 88]، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾؛ أيْ: وجوههم حقيقةً؛ وهي جمعُ (وجْه)؛ وهو الجارِحَة[8].

5) ﴿عُمۡيًا﴾: (عمي) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على سَتْرٍ وتَغطية، من ذلك: العَمَى: ذهابُ البَصرِ من العَيْنَيْن كلتيْهِما، والفعلُ منه عَميَ يَعْمَى عمًى، يُقالُ: رجلٌ وامرأةٌ عَمياء، وهذا في

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ضلل).

(2) البيت لم يُنسب إلى شاعر معيّن، وهو مذكور في نهاية الأرب: 87/ 4، وغيرها، ويُنظر: أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر: 2/ 21.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).

(4) الفرّاء، معاني القرآن: 1/ 418، وقال رحمه الله: "وكسرُ الواو في الولاية أعجبُ إليَّ من فتحِها، ولأنَّها إنَّما تُفتَحُ أكثر من ذلك إذا كانت في معنى النُّصرة، وكان الكسائيُّ يفتحها ويذهب بها إلى النُّصرة".

(5) الرَّاغب، المُفردات: (ولي).

(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 467.

(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (وجه).

(8) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 467، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 62، ويدلُّ على أنّ المُراد بالوجهِ الجارِحةُ ما أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (4760)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2806)، عن أنس ﷺ قال: «قيل: يا رسول الله كيف يُحشرُ النَّاسُ على وجوهِهم؟ قال: الَّذي أمشاهم على أَرْجُلهم قادرٌ أن يُمشيَهم على وجوهِهم».

عَمَى العَيْنَين، ويُقالُ: رجُلٌ عَمٍ؛ إذا كان أَعْمَى القلب، وقومٌ عَمون، ويقولون في هذا المعنى: ما أَعْماه، ولا يقولون في عَمى البَصَرِ: ما أَعْماه؛ ومن عَمَى البصرِ قولُه تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: 2]، ومن عَمَى البصيرةِ قولُه تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، وهو عَم؛ وهي عَميَّة من قوم عَمين، وعَميَت الأَخْبار والأمور عنه وعليهِ: خفيتْ والتبستْ، وفي التَّنْزيل العَزيز: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص: 66]، ويُقال: عَمي عليهِ طَريقُه؛ إذا لم يهتد إليه[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ مُحتمِلٌ لعمَى البصرِ، أو أنَّهم لا يرون شيئًا يسرُّهم[2].

6) ﴿وَبُكْمًا﴾: (بكم) أصلٌ واحدٌ قليل؛ وهو الخَرَسُ، وبُكْمٌ: جمعُ أَبْكَم، وبَكِمَ يَبْكَمُ بَكَمًا، وهو الَّذي يولَدُ أَخْرس، فكلُّ أَبْكم أَخْرس، وليس كلُّ أخرسَ أَبْكم، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النَّحل: 76]، والأَبْكَمُ: الأخرسُ لا يتكلَّم، وإذا امتنعَ الأَبْكَمُ من الكلام جَهْلًا أو تعمُّدًا يُقال: بَكِمَ عن الكلام[3]، ويُقالُ: رجالٌ بُكْمٌ، وامرأة بكماء، ونساء بَكْماوات، وبُكْمٌ، قال اللهُ ﷻ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة: 18]، فسّر المفسّرون البُكم: الخُرس، ويُقال أيضًا: البُكم: المسلوبو الأفئدة[4]، وقولهم: بَكِمَ الرّجل بَكَمًا: عجز عن الكلام خِلْقَة، وقد يُقال لِمَن لا يُفصح: بَكِمَ، تَشْبيهًا ومبالغةً[5]، وقولُه تعالى: ﴿وَبُكْمًا﴾ محتمِلٌ لفُقدانِ النُّطقِ، أو عدم التَّكلُّم بما ينفعُهم[6].

7) ﴿وَصُمًّا﴾ (صَمّ) أصلٌ يدُلُّ على تَضامٍّ الشَّيءِ وزوالِ الخَرْقِ والسَّمّ، من ذلكَ: الصَّمَمُ في الأُذُن، يُقالُ: صَمِمتُ وأنتَ تصَمُّ صَمَمًا، وربَّما قالوا: صُمَّ؛ بمعنَى: صَمَّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمع، وبه يوصَف مَن لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يَقبلُه، قال تعالى: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾ [الفرقان: 73][7]، "قال اللّيث: الصّمم في الأُذُن: ذهاب سَمعِها، وفي القناة: اكتناز جوفها، وفي الحَجَر: صلابته، وفي الأمر: شِدَّته، ويُقال: أذنٌ صمّاء، وحَجَرٌ أصمّ، وفتنةٌ

(1) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (عمي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 197، وابن الجوزي، زاد المَسير: 5/ 90.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (بكم).
(4) أبو بكر الأنباريّ، الزاهر: 1/ 277.
(5) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (بكم).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 197، والماوَرْدي، النُّكت والعيون: 3/ 275.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (صمم).

صمّاءُ"[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَصُمًّا﴾ مُحتمِلٌ لفُقدانِ السَّمع، أو لعدمِ سماعِ ما يسرُّهم[2].

8) ﴿خَبَتْ﴾: خَبَتِ النّارُ تخبو خَبْوًا وخُبوًّا: سَكَنَ لَهَبُها وطُفِئت، وصارَ عليها خِباءٌ من رَمادٍ؛ أيْ: غِشاء، وأصلُ الخِباءِ الغِطاءُ الَّذي يُتغطَّى به[3]، وقالَ الكُمَيْت: مُؤجِّجُ نيرانِ المكارمِ لا المُخْبي[4]، وقولُه تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾؛ أيْ: سَكَنَتْ[5]، أو لانَتْ وضَعُفَتْ[6].

9) ﴿سَعِيرًا﴾: (سعر) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على اشْتعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارْتفاعِه، من ذلك السَّعيرُ: سَعيرُ النّار، واسْتعارُها: توقُّدها[7]، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح: 13]، وزِدْناهم نارًا تَتَسعَّر؛ أيْ: تتلهَّب[8]، وسعّر النّار والحرب يُسعّرهما سَعْرًا، وأَسْعَرَهما وسَعّرهما: أوقدهما وهيّجهما، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النّساء: 55]، قال الأخفش: هو مثل دَهين وصَريع، لأنّك تقول: سُعّرت، فهي مسعورة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [المُلك: 11]؛ أيْ: بُعدًا لأصحاب النّار[9]، وقولُه تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أيْ: سُعِّرَ العذابُ عليهم وتوقَّدَ بأشدَّ ممّا كان[10].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن تصرُّفِه في خلقِه ونُفوذِ حُكْمِه، وأنَّه لا

مَـن أرادَ اللـهُ هدايتَه اهتدى، ومَن أرادَ إضْلالَه فالنّار مثواه، ولا ناصرَ له

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صمَّ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 197، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 5/ 90.
(3) الرَّاغب، المُفردات: (خبو)، وابن منظور، لسان العرب: (خبا).
(4) عَجُز بيتٍ، وصدرُه: "ومنَّا ضرارٌ وابْنَماه وحاجبٌ"، يُنظر: أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 391، وابن الأنباريّ، الأضداد، وورد بلا نسبة في: ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: 3/ 1308، وأَخْبيتُ النَّارَ: أضمدتُها، والمُخْبي: الَّذي يُطفئُ النَّار، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (خبا).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168 عن ابن عباس ﷺ، ومجاهد.
(6) عبد الرَّزّاق، تفسير القرآن العظيم: 1/ 390، عن قتادة.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، (سعر).
(8) ابن قتيبة، الغريب: 1/ 262.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (سعر).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168، وابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 176.

مُعقِّبَ له؛ بأنَّه مَنْ يُرِدِ اللّٰهُ هدايتَه، فهو المهتدي إلى الحقِّ أو إلى كلِّ مطلوب، ومَنْ يُرِدْ إضلالَه، فلن يكونَ لهم أولياءُ ينصرونَهم من دونِ اللّٰه، ويَهدونَهم إلى الحقِّ الَّذي أضلَّهمُ اللّٰهُ عنه، أو إلى طريقِ النَّجاة، وهؤلاء الَّذين يحشرُهمُ اللّٰهُ يومَ القيامةِ على وجوهِهم، لا يُبصِرون، ولا يَنْطِقون، ولا يَسمعون، جزاءً لهم كما كانوا في الدُّنيا بُكمًا وعُميًا وصُمًّا عن الحقّ، فجوزوا في مَحْشرِهم بذلك، وهم أَحْوجُ ما يحتاجون إليه، ومصيرُهم جهنَّم، كلَّما سكَنتْ زادَها اللّٰهُ بأمرِه وقُدرتِه لهيبًا وجَمرًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواوِ) في الآية بين العطف والاستئناف:

تحتمل الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أن تكون اسْتئنافيَّةً في كلامٍ مُبتَدأ، يفصِلُ ما أشارَ إليه الكلامُ السّابقُ من مجازاةِ العبادِ إشارةً إجماليَّة؛ أيْ: مَنْ يَهْدِه اللّٰهُ إلى الحقِّ، فهو المهتَد[2]، وتحتملُ أن تكونَ عاطفة، وذلك على وجهيْن؛ **الأوّل:** أن تكون عَطفَتْ جُملتَها على جملة: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء: 94]، جمعًا بين المانعِ الظّاهرِ من الهُدَى من تكذيب المشركين أن يكون اللّٰه تعالى قد بعث بشرًا رسولًا، وبينَ المانعِ الحقيقيّ، في كون الأمور كلّها بيد اللّٰه تعالى.

تـــلاؤم الآيـــة مـع الـسّياقات السّابقة لتأكيد هـــدايـــة الـلـه السّامقة

والآخر: أن تكونَ الجملةُ معطوفةً على جملة: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الإسراء: 96] ارْتقاءً في التَّسلية؛ أيْ: لا يَحْزُنْكَ عدمُ اهْتدائهم، فإنَّ اللّٰهَ حَرَمَهُمُ الاهْتداءَ لمّا أخذوا بأسباب العنادِ قبلَ التَّدَبُّرِ في حقيقةِ الرِّسالة[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 62، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 361.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 214 - 215.

المتشابهُ اللّفظيُّ بين آية الإسراء (94) وآيتي الأعراف (178) والكهف (17):

دلالةُ المتشابهاتِ اللّفظيّةِ من الفَصْل والوصْل في هذه الآيات السّنيّة

في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، جاءتِ الواوُ في صَدْرِ الآيةِ عاطفةً لجملتِها على ما تقدَّمَها في جملة: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء: 94]، كما سبق في بيان معنى الواو، وأمّا في قولِه تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ [الأعراف: 178] وفي قوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ [الكهف: 17]؛ فليس هنا عطفٌ على ما تقدَّمَ؛ فلم يَقُلْ: (ومَنْ) لاسْتئنافِ هذه الجملةِ في معنًى جديدٍ في كلا السّورتَيْن: الأعرافِ والكهف، ولم يَذكُرْ في سياقِهما مصيرَ أولئكَ الَّذين كتبَ اللّهُ عليهم الضَّلالةَ وعَدَمَ الهداية[1]، وكذلكَ فإنَّ آيةَ الإسراءِ جاءتْ بزيادةِ الواوِ في صَدْرِها لتُناسبَ تفصيلَ ما جاءَ في سياقها، فإنَّ زيادةَ المَبْنَى تدلُّ على زيادةِ المعنى، وفي كلٍّ من آياتِ: الإسراءِ والأعرافِ والكهف قدَّمَ الهدايةَ على الضَّلالة؛ فالأولى خيرٌ لصاحبِها، والثّانيةُ سوءٌ عليه، فقدَّمَ النَّفعَ على الضُّرّ[2]، فلكلٍّ من الألفاظِ – قلَّتْ أو كَثُرَتْ ذِكْرًا أوْ حذفًا بما يُلائمُ السّياقاتِ الَّتي وردتْ فيها – ما يُعبِّرُ عن دقَّةِ البيانِ القرآنيِّ وعُلوِّ بلاغتِه.

نكتةُ استعمال ﴿وَمَن﴾ الشَّرطية في السّياق:

هدايةُ اللهِ الصّمد لا يُحرم منها أحد

جاء استعمال ﴿وَمَن﴾ الشّرطية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ بديعًا لوقوعه على العاقل، ولتضمُّنه معنى العموم، ففيه دعوةٌ ترغيبيَّة للعبادِ في أن يدخلوا جميعًا في دين الله تعالى، فليس بأحدٍ ممنوعٌ أو محرومٌ ابتداءً، فالآيةُ تحمل قيمةً هدائيَّةً وعَقَديّةً في أنَّ اللّه تعالى عدْلٌ في هداية النّاس وإضلالهم؛ لأنّه تعالى"المنفرد بالهداية والإضلال؛ فمَن يَهده فييسّره لليُسرى ويُجنّبه العُسرى؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.
(2) الكِرمانيّ، البرهان، ص: 130.

فهو المهتدي على الحقيقة، ومَن يُضلله فيخذله، ويَكِله إلى نفسه؛ فلا هادي له من دون الله، وليس له وليٌّ ينصُرُه من عذاب الله"[1].

دلالةُ صيغة المضارع المجزوم ﴿يَهۡدِ﴾:

الهدايةُ مُتجدّدةٌ للنّاس اختيارًا، وللمُهتدين تثبيتًا وإقرارًا

استُعملت مُفرَدة الهدى في هذا السّياق توطئةً لمقابلة الضّلالة، والهُدى هو عنوان باب الصِّراط المستقيم، فمَنِ استمسك ببداية طرق الهداية فقد أفلح، ومَن ضلَّ عنها فقد أبعد، والهُدى شاملٌ للإرشاد، وهو طريق الإيمان والإسلام، وجيء بهذه المُفرَدة بصيغة الفعل المضارع ﴿يَهۡدِ﴾ ليُفيد التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ في إمدادِ اللهِ لعبادِه الذين يبحثون عن الهدايةِ وتثبيتِها في قلوبِهم، حتَّى تكونَ الهدايةُ صِبْغَتَهم في جميعِ أحوالِهم، لا ينفكّون عنها ولا تغادرُهم، ونكتة المضارع في كون هداية الله تعالى مُتجدِّدةً لجميعِ العبادِ الضّالين لهدايتهم ابتداءً، ومُتجدّدةً لجميع المُهتدين تثبيتًا.

نكتةُ استعمالِ المُسنَدِ إليه بصيغة لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

هدايةِ اللهِ العظيم تقتضي الاهتداءَ لصاحب الهداية والتّعظيم

آثرتِ الآية ذِكرَ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ بغرض تشريف شأن الهداية، فإنَّ الهداية الصّادرة عنه ﷻ هي الهداية الكاملة المَرجوَّة لمَن يرجو النّجاة والسَّداد، ولتعظيم قَدْرِ هداية اللهِ لعبادِه، وتفخيم شأنِ مَنْ أَدْرَكتْه هدايةُ الله، فكانَ مَحَلًّا وأهلًا، لإرادةِ اللهِ له بتلكَ الهداية، وتوفيقِه إليها وإيصالِه لحقيقتِها.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

هدايةُ الله تعالى النّصرة معذوقةٌ بأصل القرآن والسُّنّة العطرة

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ بفعلِه وأداتِه، بما يُفيدُ تحقُّقَ الهدايةِ، فيمَن أرادَ اللهُ له الهدايةَ وعدمَ تخلُّفِها عنه؛ أيْ: إن أراد الله هداية أحدٍ فهو المهتدي على الحقيقة، وما دونه لا يوصف إلّا بالضّلال، وهداية الله تعالى تكون بشَرْعه الّذي أنزله على رسوله محمّدٍ ﷺ، وما سوى ذلك فضلالٌ مبين،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 467.

لا يقبل الله لصاحبه صَرْفًا ولا عدلًا، فكلّ انتسابٍ دينيٍّ لا يكون للقرآن والسُّنّة فهو ضلالٌ، ومعنى ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾: "أيْ: مَن اهتدى بنور الحقّ، وسار في طريقه، فهو المُهتدي حقًّا وصدقًا، وهو البالغ الكمال في الهداية، والآخذ بالرّشاد، والسّالك طريق النّجاة"[1]، وعليه فقد التأم السّياق باتّساق عناصر الجملة الشّرطيّة، لتأكيد هذا المعنى القَدَريّ الرّاسي، في كون الهداية الّتي يُقرُّها الله بأمره العظيم وتدبيره الحكيم هي الحاصلة فعلًا في انسلاك المُهتدي بها في طريق الله المستقيم.

بلاغةُ القَصْرِ في الجملة الاسميَّة:

قصرُ الهدايةِ على اللهِ دون سواه، هو لبّ الاعتقاد الصّحيح وفحواه

جاءَتِ الجملة الاسميّة في قولِه تعالى: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ في جوابِ الشَّرطِ، لإفادةِ قَصْرِ الهدايةِ على الَّذي هداهُ اللّهُ قصْرًا إضافيًّا؛ أيْ: دونَ مَنْ تُريدُ أنت هُداه وأَضلَّهُ الله، والهُدَى هنا هدًى واحدٌ، وهو الهُدَى إلى الإيمان، وهذا قائمٌ محصورٌ بمَنْ هداه اللّهُ فَحسْب[2].

دلالة التّعريف بـ(ال) في لفظ ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾:

أصلُ الهدايةِ من الله، وتحقُّقُها يكون منه لا من سواه

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ للتَّعريف، وهو تعريفُ العَهْدِ الذِّهنيّ، فالمُعرَّفُ مُساوٍ للنَّكِرة، من حيث المعنى المُجرَّد لا من حيث سرُّ التَّعبير، فكأنَّه قيل: (فهو مُهْتَد)، ويجوزُ أن يكونَ التَّعريفُ تعريفَ الجِنْس، وفي كلا المعنَيَيْنِ دَلالةٌ على أنَّ أصلَ الهدايةِ وكمالَها مُتوقِّف على اسْتمدادِها من اللّهِ تعالى[3].

فائدةُ الإخبارِ باسم الفاعل ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾:

التَّوطئةُ إلى ذِكرِ ما يُقابلُه من الإضلال

الإخبار باسم الفاعلِ ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾، عمَّن هداه الله تعالى بأنَّه مُهْتدٍ أفاد التَّوطئة إلى ذِكْرِ مُقابلِه، وهو ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾،

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 461.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.

كما يُقالُ: مَنْ عَرَفَني فقد عَرَفني؛ ومَنْ لم يعرفْني فأنا فُلان[1]، ومجيئُه بصيغة اسم الفاعل لبيان أنَّ الهداية أصبحت سلوكًا له باختيارِه، وأنَّه سيجازيه على أعمالِه الّتي تُسند إليه عن قوَّة اختيارٍ وإرادة، علمًا بأنّ "علمه تعالى في مثل هذا الموضع مُستعمَلٌ بمعنى المُجازاة؛ أيْ: مَن يهد اللّهُ تعالى إلى الحقّ؛ فَهو المُهْتَدِ إليه، وإلى ما يؤدّي إليه من الثّواب، أو المهتدي إلى كلّ مطلوب"[2].

معنى الواو في جملة: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾:

بـنـور الـهـدايـةِ تنقشعُ ظُلمة الضَّلالة

الواوُ في قولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ عطفتْ فعلَ الإضلالِ على فعلِ الهداية، فكلاهما بإرادةِ اللّهِ تعالى، والثّانيةُ ضدُّ الأولى، وفي هذه الضِّدّيَّةِ يتبيَّنُ قَدْرُ الهداية، وتميُّزُها عن الضَّلالة، فهي من عطف الجملة الشّرطيّة على الشّرطيّة، لبيان التَّقابل بين الأضداد.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُضْلِلْ﴾:

مَـنْ حقَّتْ عليه الـضَّـلالـةُ بلا خـلاصٍ، فلا يـكـونُ لـه منها مَناص

دلَّتْ صيغةُ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يُضْلِلْ﴾ على أنَّ مَن شاءَ اللّهُ إضلالَه ستستمرُّ تلكَ الضَّلالةُ ملازمةً له لا تنفكُّ عنه، فهو الضّالُّ لا هاديَ له[3]، "ومَنْ يُضْلِلْ يخلق فيه الضّلال لسوء اختياره وقبح استعداده كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أيْ: أنصارًا مِنْ دونِهِ ﷻ، يهدونهم إلى طريق الحقّ، أو إلى طريق يوصلهم إلى مطالبهم الدّنيويّة والأخرويّة، أو إلى طريق النّجاة من العذاب الّذي يستدعيه ضلالهم"[4]، وفيها تحذيرٌ شديد لمَنْ ضلَّ، ووعيدٌ أكيدٌ من ملازمة الضَّلال لصاحبه.

معنى حرف (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾:

الفاءُ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ وجزائه، في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 165.
(3) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 516.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 165.

لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾، بفِعْلِه وأداتِه ربطًا يُفيدُ التَّحقُّق واللُّزوم، فهي قاعدةٌ لا تتخلَّفُ: أنَّ مَن أرادَ اللّهُ إضلالَه، فلن يكونَ له ناصرٌ ولا مُؤازِرٌ، وهذا لا يكون إلّا بسبب اختيار العبد؛ فإنَّ إضلالَ الله تعالى لا يكون إلّا بما يختاره العبد من ارتكاب أسباب الضَّلالةِ، فيترك أسباب الهداية، والالتجاء إلى الله تعالى، فحينها يتركه الله تعالى لنفسِه، ويُضلُّه الضَّلالَ البعيدَ.

مَـن تَـرَكَـهُ اللهُ عَـدِمَ الشُّفعاءَ والأنصار، ومَن حماه فلا يضرّه عدوان ولا ثار

بلاغةُ النَّفي بأداة (لَنْ) في السّياق:

آثر النَّظم الكريم النَّفيَ بأداة ﴿فَلَن﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ لدلالتها على التَّوكيد، وهي مُتلائمةٌ مع الاستغراق في الجملة، لنفي وجدان الأولياء، مع ذِكْر قيد ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، المُتضمِّن لاستغراق كلِّ مَن هم دون الله تعالى دون استثناء، فاستعمالها أبلغُ وآكَدُ في هذا السّياق من رديفاتها من أدوات النّفي.

اصطفاءُ الأداةِ الأليق بالسّوابق واللّواحق مُفيدٌ في البيان

بلاغة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ انتقل التّعبير من الإخبار عن المهتدي بالغيبة، إلى الإخبار عن الضّالِّ بالخطاب، ونكتة ذلك التَّنبيهُ على معنًى آخر، وهو فقدان الأمل من أسباب الولاية الظّاهرة، بالإضافة إلى كونه الضّالَّ، وهذا من ذِكْر الدّليل على الدَّعوى، ردًّا على مَن يزعم أنَّ له أولياء من دون الله تعالى؛ وعليه فإنّ مَنْ يُضْلِلِ الله، فلن تَجِدَ من دون الله أولياء يوالونهم ويُظاهرون عليهم، ويُنقذونهم من بأس الله وبطشه، بعد ما أخذتهم العزّة بإثمهم[1].

قَـزْنُ الـدَّعـوى بدليلِها أَبْـلَـغُ في الإقـــرارِ بـمـضـمـونِـهـا ابْتداءً

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 466.

تعيينُ المخاطَب في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾:

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يحتمل أن يكون للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ هذا الكلامَ مَسوقٌ لتَسْليتِه على عدم اسْتجابتِهم له[1]، ويحتملُ أن يكونَ الخطابُ موجَّهًا لكلِّ مَنْ يَصْلُحُ له، وهو الأَوْلى بالقبول، ويدخل رسول الله ﷺ دخولًا أوَّليًّا، وعند الماورديّ "فيه وجهان: أحدهما: ومَن يحكم بضلاله؛ فلن تجد له أولياء من دونه في هدايته، الثّاني: ومَن يقضِ اللّهُ تعالى بعقوبته، لم يوجَد له ناصرٌ يمنعه من عقابه"[2].

الخطابُ عامٌّ يدخل فيه رسولُ الله ﷺ دخولًا أوّليًّا

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تَجِدَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ جاءَ الفعلُ ﴿تَجِدَ﴾ بصيغةِ المضارعِ، ليتناغمَ مع التَّأبيدِ في قولِه: ﴿فَلَن﴾ مع تأكيدِ استمرارِ تعذُّرِ وجودِ مَن يَهْدي مَن أضلَّهُ اللّهُ تعالى[3]، ولإفادة تجدّد النّفي الدّالّ على استحالة وجود أولياء من دون الله تعالى، وهذا أدعى في اليأس، وأشدُّ في فقد الأمل النّفسيّ، ولذلك فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أيْ: أنصارًا في هذه الدّنيا يَهدونهم؛ بل إنّهم لا ينفعونهم بشيء أراد الله غيره، ولذلك نُفوا أصلًا ورأسًا، لأنّهم إذا انتفى نفعُهُم؛ كانوا كالعدم[4].

اليأسُ عنوان الضّالّين في البحث عن النّاصرين المتُوهّمين

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ للاختصاص، على طريق المبالغة، كأنَّه قال: (لن يكون لهم هؤلاء على وجه الخصوص أولياء)، والنّفي شاملٌ لهم ولغيرِهم، ونكتةُ ذلك زيادة اليأس في نفوسِهم أن يكون لهم أولياء من دون الله تعالى؛ فإنَّ

زيادةُ اليأس في النّفوس من أسباب الارتداع

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 411، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 216.
(2) الماوَرْديّ، النّكت والعيون: 3/ 274.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484.
(4) البقاعيّ: نظم الدّرر: 1/ 516.

النَّفس إن علمت ذهاب أسباب النَّجاة والولاية والنُّصرة لها على وجه الخصوص؛ فإنَّ ذلك سيردَعُها عن غيِّها، وسيقودُها إلى رشدها، فإن أصرَّتْ فذلك هو الضَّلال المبين.

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾:

نفيُ الوليّ عن الأفراد والجماعات سواء

لَمّا كانَ الضّالّون لن يجدوا من دونِ اللهِ أنْصارًا يهدونَهم إلى طريقِ الحقّ، أو إلى طريقٍ يوصّلُهم إلى مطالبِهم الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّة، أو يدلّونهم على طريقِ النَّجاةِ من العذابِ الَّذي يستدعيه ضلالُهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۗ﴾ على معنَى: لن تجدَ لأحدٍ منهم وليًّا على ما تَقْتضيه قضيَّةُ مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ، من انْقسامِ الآحادِ إلى الآحاد؛ أيْ: لن تجدَ لكلِّ واحدٍ وليًّا، ولا لجماعته وليًّا[1]، "ووجهُ الملاءمة في ذلك: "أنّه لمّا كان الهَدْي شيئًا واحدًا، غيرَ متشعّبِ السّبلِ؛ ناسَبَه التّوحيدُ، ولمّا كان الضّلالُ له طرقٌ نحو: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، ناسب الجمعُ الجمعَ، وهذا الحَملُ الثّاني ممّا حُمِل فيه على المعنى وإن لم يتقدَّمه حَملٌ على اللّفظ"[2].

بلاغة ذِكْر القيد ﴿مِن دُونِهِۦۗ﴾:

كلُّ وليٍّ من دون الله ففي الدّون حسبانه

جاء ذكر القيد ﴿مِن دُونِهِۦۗ﴾ وهو حالٌ لـ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؛ لبيان أنَّ الأولياء المَنْفيّ وجودهم مُطلقًا هم كلُّ وليٍّ كائنٍ من دون الله تعالى، والتَّعبير بـ﴿دُونِهِۦۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦۗ﴾؛ فلم يَقُلْ: (فَلَنْ تَجِدَ لَهُم أَوْلياءَ غَيْرَهُ)؛ لبيان أنَّهم في الدّون - إنْ وجدوا -.

بلاغةُ الكنايةِ ودلالتها الاستغراقيَّة:

نفيُ الوجدانِ يلزم عنه نفيُ الوجود

في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۗ﴾، نفيُ وُجدانِ الأولياء، وهو كنايةٌ عن نَفْي وجودِ الأولياءِ لهم؛ لأنَّهم لو كانوا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 216.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 414.

موجودينَ لوجَدَهم هو وعَرَفهم، وهو إقرارٌ بالدَّليل الحِسّيِّ على عدمِ رؤيةِ أولئك الأولياءِ المَزعومين[1]، وهذا التَّعبير أشمل في استغراق كلِّ مَن يُظنُّ أنَّه داخلٌ في الولاية، كأنَّه قال: (ابحث عن الأولياء المزعومين؛ فلن تجد لهم أولياء من دونه).

بلاغةُ الاحْتباكِ في السّياق الحكيم:

اخـتـزالُ المعاني والاقـتـصـادُ في المباني من فصيحِ البيان القرآني

جاءَ نفيُ الأولياء للضّالينَ الّذين يزعمون أنَّهم يهدونَهم من دونِ اللّه، أو ينفعونَهم بشيءٍ أرادَ اللّهُ غيرَه، ولذلك نُفوا أصلًا ورأسًا؛ لأنَّهم إذا انْتفَى نفعُهم كانوا كالعدَم، وإذا انْتفَى عن الجمعِ؛ انْتفَى عن المُفردِ من بابِ الأَوْلى؛ فالآيةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ حفلتْ بالاحْتباك، حيث إنَّ خبرَ الأوَّلِ يدلُّ على حَذْفِ ضدِّه ثانيًا، ونتيجةَ الثّاني تدُلُّ على حذفِ ضدِّها من الأوَّل[2]، والتّقدير: (ومَن يهد الله فهو المهتد وستجد الله لهم وليًّا، ومَن يُضلل فهو الضّالّ، ولن تجد لهم أولياء).

نكتةُ اختلاف التَّعبير بالإفرادِ والجمعِ في التّقابل:

وحـدةُ سالكي طريـقِ الهداية وكـثرةُ سالكي طُرُقِ الضَّلالة

في جانبِ الهدايةِ جاءَ إفرادُ الضَّميرِ ﴿فَهُوَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾، وفي جانبِ الإضلالِ جاءَ جمعُ الضَّمير ﴿لَهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾، ففي الإفرادِ أشارَ إلى قلّةِ المهتدي على طريقةِ الإحسان، فقالَ تعالى: ﴿فَهُوَ﴾؛ أيْ: لا غيره ﴿ٱلْمُهْتَدِۖ﴾، ولا يمكنُ لأحدٍ غيره أن يُضلَّه، وفي الجمعِ أشارَ إلى كَثْرةِ الضّالّين، فمَن يُضلُّه اللّهُ فهو الضّالُّ لا هاديَ له، ولذلك لن يكونَ للضّالّينَ أنصارٌ في هذه الدُّنيا من دونِ اللّهِ يَهدونَهم، ولا ينفعونَهم بشيءٍ أرادَ اللّهُ غيرَه[3]، ففي الإفرادِ حملٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 216.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516.

على اللَّفظ، وتلويحٌ بوحدةِ طريقِ الحقِّ وقلَّةِ سالكيه، وفي الثّانية مراعاةٌ للمعنى وإيماءٌ بتعدُّدِ سُبُلِ الضَّلالِ وكَثرَةِ الضّالّين[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾:

استئنافُ المعاني لبيانِ تبايُن الأحوالِ من فصيح البيان

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ للاستئنافِ، وقد بدأت بذِكْر معنًى جديد، وهو ما يكون يوم القيامة من الحشر، فبعد أن ذكرتِ الآية نفي الولاية عن كلِّ ما يُتوقَّع منه ذلك ممّا يزعمه الزّاعمون، جاء ذِكْر الدّليل الّذي يُصوِّر مشهد الحشر، وبيان حال الضّالين الّذين اتّخذوا من دون اللّه أولياء.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ مع نون العَظَمَة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾:

تصويرُ مشهدِ حَشْرِ الضّالّين بما فيه من هَوْلٍ وهَوانٍ

دلَّتْ صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ على تصوير ذلك المشهد المَهول يوم القيامة، وأنَّ الحَشْر سيكون شيئًا فشيئًا حتى يكتمل في صورةٍ لم تعرفها البشريَّة، ولم تشهدها قبل ذلك اليوم، ولَمَّا كانَ يومُ الفَصْلِ يومًا يَظْهرُ فيه لكلِّ أحدٍ في كلِّ حالةٍ من عظمته تعالى ما يَضمحِلُّ معه كلُّ عَظَمة؛ جاءَ التَّعبيرُ بنونِ العَظَمة في ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾؛ أيْ: نجمعُهم بِكُرْهٍ[2].

نكتةُ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

بعد بيان الهُدى والضَّلال حَسُن التَّنبيهُ على أمرِ الحشر

التفت النَّظم من الخطاب بالغَيبةِ فيما سبقَ إلى الخطاب بالتَّكلُّم في ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾، إيذانًا بكمالِ الاعْتناءِ بأمرِ الحَشرِ، في ذلك اليومِ العَصيب[3]، وكأنَّ الالتفاتَ يُشير إلى بدايةٍ جديدةٍ، من إنشاءِ المعنى، وهو الإخبار عن مستقبل النّاس بعد بَعثِهم وجمعهم، وهو أدلُّ على الهيبةِ والوعيد الشّديد لما يجب أن ينتبهوا إليه الانتباهة الكبرى بعد بيان أمر الهُدى والضَّلال.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 115، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484.

دلالةُ تقديمِ الظَّرف على بقيَّة القيود:

تشويق المخاطَب بتهويل ذِكر القيامة

قُدِّم الظَّرف ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ على بقيَّة القيود ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾؛ فلم يَقُلْ: (ونحشرُهم على وجوهِهم يومَ القيامةِ)؛ لِما في ذلك من تهويل الحَدَث، فإنَّ حشرَهم سيكون في ذلك الزّمان المهول، ففيه إشعارٌ بالاختصاص، وهذا هو الواقع، إذْ لا يُحشر النّاس الضّالون على وجوههم إلّا في القيامة، وفيه من التَّشويق لمعرفة ما بعد ذِكر زمن القيامة، لأنّه يوم الفصل، وفيه تتحدّد المصائر، وتظهر الحقائق، وينتهي النّاس إلى العدل المُطلق، الّذي لا يُغبنُ فيه أحدٌ، وعلى قدر عظمة الظّرف تكون قيمة المظروف، وفي ذلك إشارة إلى تنبيه النّاس إلى يوم القيامة؛ لأنّ الغفلة عنه هي الّتي أودَتْ بالمشركين؛ فاتّخذوا من دون الله أولياء، ولم يخشوا مَغَبّة المصيرِ في ذلك اليوم الخطير.

نكتةُ اختيارِ عنوان القيامة:

تلاؤم القيامة ابتداءً مع الحشر الأعظم انتهاءً

آثرَ النَّظم الكريم الإتيانَ بعنوان القيامة في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ وهو الاسم العَلَم الأشهر على يوم الحشر والجزاء؛ لأنَّ كلمةَ ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيها إشارةٌ إلى قيام النّاسِ من قبورِهم، قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: 6]، والقيامةُ أصلُها ما يكونُ من الإنسانِ من القيامِ المرَّةَ الواحدة؛ أيْ: دُفعةً واحدة أُدخِلَت فيها الهاءُ تنبيهًا على وقوعِها دُفعةً واحدة، كما قالَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمر: 68][1]، فكان في ذِكرها تلاؤمٌ مع معنى الحشر؛ فهم يقومون ابتداءً ليُحشروا للحساب والجزاء.

بلاغةُ تضمينِ فعل الحَشرِ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

لَمَّا كان الحَشْرُ يَستَدْعي مَشيَهم؛ فقد عُدّيَ بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (قوم).

التَّفسير النَّبويُّ المبينُ رافدٌ من روافد البلاغة مَكينٌ

لتضمينِه معنَى (يَمشون)[1]، وقد فهمَ الصَّحابةُ ﷺ ذلكَ من الآية، فسألَ أحدُهمُ النَّبيَّ ﷺ: قال: يا رسول الله، كيف يُحشَرُ النّاسُ على وُجوهِهم؟ قالَ ﷺ: "الَّذي أمشاهم على أَرْجُلِهم قادرٌ أن يُمشيَهم على وُجوهِهم"[2]، "فإذا حُشروا يوم القيامة؛ سُحبوا على وجوههم إلى جهنّم، وجُرّوا إليها جرًّا، كما يقول ﷻ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: 48]، وفي سَحْبهم على وجوههم إذلالٌ لهم، وامتهانٌ لإنسانيّتهم، وقد كانت هذه الوجوه تلبس ألوانًا من الكِبْر والصّعر والتّعالي على العباد"[3].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ على الأحوال:

زيادةُ تشنيعِ حالِ أهلِ الضَّلالةِ في الآخرة

لَمّا كانَ المقامُ مقامَ إذلالٍ للضّالّينَ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى، قدَّم النَّظم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ على قولِه تعالى: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ زيادةً في تشنيعِ حالِهم، حيث لم ينتفعوا في الدُّنيا بأبصارِهم ولا نُطقِهم ولا أسْماعِهم؛ بل كانوا يستعملونَها ويوجِّهونَها بما فيه بعدٌ عن الحقِّ وإيغالٌ في الضَّلال، فلم يكنْ لهم في الآخرةِ شيءٌ إلّا حصلَ أوَّلُه ومَبْدؤه في الدُّنيا وتمامُه في الآخرة[4].

سرُّ تخصيص الوجوهِ بالذِّكر:

مَن لم يُذلَّ لله في الدُّنيا طوعًا؛ خضع لإرادته في الآخرة جَبْرًا

في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾، عبَّر بلفظِ الحشرِ على الوجوهِ، دونَ غيرِها من أعضاءِ الإنسانِ، جزاءً مناسبًا للجُرْم الَّذي فعلوه في الدُّنيا، إهانةً وإذلالًا لهم فيها، كما لم يُذِلّوها بالسُّجودِ لخالقِهم ﷻ، ولأنَّهم روَّجوا الضَّلالةَ في صورةِ الحقّ، ووسَموا الحقَّ بسِماتِ الضَّلال، فكان جزاؤهم أنْ حوِّلتْ وجوهُهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 217.
(2) البخاري، الصّحيح، الحديث رقم: (4760)، ومسلم، الصّحيح، الحديث رقم: (2806).
(3) الخطيب، التّفسير القرآني: 8/ 554.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 411، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516 - 517.

أعضاءَ مَشيٍ عِوضًا عن الأَرْجُل[1]، والمقصود من ذلك الجمعُ بين التّشويه والتّعذيب؛ لأنّ الوجه أرقّ تحمّلًا لصلابة الأرض من الرِّجل[2]، ولا ريب أنّ هذا التّهديد بشنيع العذاب وأقساه لفتٌ إلى قدرة الله، وتحذيرٌ لمَن يكون هذا مصيره ومُنتهاه ممّن لا يرعوي عن غيّه، ولا يعود إلى رُشْدِه باعتبار أنّ ذلك أخزى العذاب وآلَمُهُ، ومَن ساءت في الحشر بدايته، ساءت نهايته.

الحَشْرُ على الوجوهِ بين الحقيقةِ والمجاز:

تُحمَلُ أخبارُ الغيبِ على حقيقتِها باعتبار أنّ الله تعالى لا يُعجزه شيءٌ

الظّاهرُ من النَّصِّ القرآنيِّ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ محمولٌ على الحقيقة، ويُؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: 34]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: 48]، والأصل أن تُحمل أخبار الغيبِ على الحقيقةِ؛ لأنَّها إخبارٌ عن أحوالٍ غيبيَّة لا نعلم عن حقيقتِها إلّا ما جاء به الخبرُ، والأصل أن يُحمل الخَبَرُ على ظاهره إلّا أن يأتي دليلٌ غيبيٌّ آخر، يدلّ على خلاف الظّاهر، وقد حملها بعضُ المُفسِّرين على المجاز، فيُقال للمُنْصَرِف عن أمرٍ خائبًا مَهْمومًا: انْصرَفَ على وجْهِه، ويُقالُ للبعير: كأنَّما يمشي على وجْهِه، أو هو مجازٌ عن سَحْبِهم على وجوهِهم على سُرْعة، من قولِ العرب: قَدِم القومُ على وُجوهِهم؛ إذا أسرَعوا[3]، ولا يظهر هذا المعنى في سياق الآخرة، لا أسلوبًا ولا دلالةً، فما نُقل عن العرب مُسندٌ إلى الفاعل، وهو الانصراف والإسراع، وأمّا الحشرُ على الوجوه، فيُستعمل في كلام العرب على الحقيقة بإرادة الإهانة، فيُقال: سحبتُهُ على وجهه؛ أيْ: جررتُه على وجهه مُهينًا له.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 217.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 217.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 115.

نكتةُ ترتيب الأحوال ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾:

التَّرتيب على طريقِ التَّدلّي من الأهمّ إلى ما دونه

لمّا كان المقامُ للانْتقالِ من مقام إلى آخر، قدَّمَ البَصَر؛ لأنّه العمدةُ في ذلك، وثنَّى بالنُّطق؛ لأنَّه يمكنُ لأعمى أن يسترشد بالسُّؤال، وختمَ بالسَّمع؛ لأنَّه يمكنُ معه وحدَه نوعُ رشاد، وعطفَ كلَّ واحدةٍ على أُخْتِها بالواو، فإنْ كانَ هذا العطفُ لتشريكِ الكلِّ في كلٍّ من الأوصافِ فللتَّهويل؛ لأنَّ المُتكلِّمَ إذا نطقَ بالعاطفِ ظنَّ السّامعُ الانْتقالَ إلى شيءٍ آخر، فإذا أتى بالوصفِ كان أروعَ للعلمِ بأنَّ صاحبَه عريقٌ فيه، وإن كانَ هذا العطفُ بالواوِ للتَّنويع، فلتصويرِهم بأقبحِ صورةٍ من حيث إنَّه لا ينتفعُ فريقٌ منهم بالآخَرِ، كبيرَ نفعٍ[1].

العَمى والبكَمُ والصَّمَمُ بين الحقيقةِ والاسْتعارة:

الأصلُ حملُ كلام الله على حقيقتِه في الغيبيّات

صفة العَمى والبَكَم والصَّمم، في قولِه تعالى: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، إمّا أنَّها حقيقة؛ أو هي اسْتعارات؛ والظّاهرُ أنَّها حقيقةٌ، وذلك عند قيامِهم من قبورِهم، ثمَّ يردُّ اللّهُ إليهم أبصارَهم وسمعَهم ونُطقَهم، فعندَ ردِّ ذلك إليهم يَرَوْنَ النّارَ ويسمعونَ زَفيرَها ويتكلَّمونَ بكلِّ ما حُكيَ عنهم في ذلك[2]، وكما كانوا في الدُّنيا لا يَستبصرونَ بالحقّ، ويَتصامُّونَ عن اسْتماعِه؛ فهم في الآخرةِ كذلك لا يُبصِرونَ ما يُقرُّ أَعْيُنَهم ولا يسمعونَ ما يلذُّ مسامعَهم، ولا ينطقون بما يُقبَلُ منهم، كما في قولِه ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: 72]، وقولِه ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: 124 - 125][3]، قال الشّعراويّ: "ولك أنْ تتصوَّر إنسانًا جُمعت عليه كلّ هذه الوسائل، ليس في يومٍ عاديٍّ؛ بل في يوم البعث والنّشور، فإذا به

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 486، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 115.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 467.

يُفاجأ بهَول البعث، وقد سُدَّت عليه جميع منافذ الإدراك، فهو في قلب هذا الهَوْل والضّجيج، ولكنّه حائرٌ لا يدري شيئًا، ولا يدرك ما يحدث من حوله"[1]، وقيل: هي اسْتعاراتٌ؛ إمّا لأنَّهم من الحَيْرَةِ والهمِّ والذُّهولِ، يُشبهونَ أصحابَ هذه الصِّفات، وإمّا من حيث لا يَرَوْنَ ما يسرُّهم ولا يَسمعونَه، ولا يُنصِفونَه بحُجَّة[2].

دلالة المتشابهِ اللَّفظيّ بين آية الإسراء (97) وآياتٍ أخرى من القرآن:

أحوالُ الضّالّينَ ما بين الحقيقةِ والاستعارة

في قولِه تعالى: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، جمعَ اللّهُ لَمَنْ أضلَّهم في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾، بين عَمَى البصرِ، وعدمِ النُّطقِ، وعدمِ السَّمع، مع كونِهم مسحوبين على وجوهِهم، بقولِه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾[3]، وهذه الآية في الآخرة، بينما في قولِه تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام: 39] اختلف التّرتيب، وذلك أنَّه لَمّا تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36] أخبرَ – هنا – أنَّ المُكذِّبينَ بالآياتِ صُمٌّ لا يسمعونَ مَن يُنبِّههُم، فلا يستجيبُ أحدٌ منهم، ولَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 38] مُنبِّهًا على عظيمِ قُدرةِ اللّهِ تعالى ولطيفِ صُنعِه وبديعِ خَلْقِه؛ ذكرَ أنَّ المُكذِّبَ بآياتِه، هو أَصَمٌّ عن سماعِ الحقِّ، أَبْكَمُ عنِ النُّطقِ به؛ فجاءَ الإخبارُ عنهم بقولِه: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام: 39]، فهو اسْتعارةٌ عن عدمِ الانْتفاعِ الذِّهنيِّ بهذه الحواسّ، لا أنَّهم صمٌّ وبُكْمٌ في الظُّلماتِ حقيقة، وجاءَ قولُه: ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام: 39] كنايةً عن عمى البَصيرة، فهو يَنْظُرُ كقولِه: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18، 171]، فهذه الآية في الدّنيا، ويمكنُ أن يكونَ الإخبارُ عنهم بأنَّهم صمٌّ وبكمٌ في الظُّلُماتِ حقيقةً، وذلك يوم القيامة، يجعلُهمُ اللّهُ تعالى صُمًّا وبُكْمًا في الظُّلمات، يُضِلُّهم بذلكَ عن الجنَّةِ ويُصيِّرُهم إلى النّار،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 4/ 3760.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 486، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 115.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 115، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 361.

ويَعضُدُ هذا التَّأويلَ - هنا - قولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[1].

نكتةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ بإضافة المأوى إلى الضَّمير:

جـهـنَّـم قـرارُ الـضّـالّـين وسكَنُهم المُخزي المُهين

المأوى هو موضعُ القرارِ والاطْمئنان، والتَّعبيرُ به في قولِه تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، فيه تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ جهنَّمَ لا تكونُ موضعَ اسْتقرارٍ واطْمئنان؛ بل تكونُ موضعَ قلَقٍ وآلام، وهذا ما سَيحُلُّ بهم في مأواهم الأخير[2]، ويزيد التَّهكّم إضافة المأوى إليهم، لما تُشعره الإضافة من معنى اللّام، فهو مأوى لهم على وجه الخصوص.

سرُّ اخْتيارِ اسم ﴿جَهَنَّمُ﴾ في السّياق المُحكَم:

بيان شِدَّةِ اتِّقادِ جـهـنَّـم وبُـعْـدِ قعرِها

آثَرَ النَّظم الكريم ذِكْر لفظ ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ لما فيه من معنَى الاسْتعارِ والاتِّقادِ المُستمرِّ والتَّجهُّم وبُعْدِ قَعرِها[3]، فهي تَسْتعِرُ عليهم وتتجهَّمُهم، كلُّ واحدٍ منهم يُقاسي عذابَها وحدَه وإن كانَ وجهُه إلى وجهِ صاحبِه؛ لأنَّه لا يُدرِكُ سوى العذابِ للخَتْمِ على مشاعرِه[4]، فناسب ذِكْر ﴿جَهَنَّمُ﴾ لما فيه من الإشارة إلى تعذيب تلك الوجوه الضّالة، ولكون جهنّم هي مأوى الطّاغين ومنتَهَى المُفسدين، وأنّها تجمع كلَّ همٍّ مُرهِقٍ، وتحوي كلّ غمٍّ مُقلقٍ، وأنّ داخلها يكون مأواه النّار؛ وبئس القرار.

بلاغةُ الاسْتئنافِ البيانيِّ في السّياق:

هـولُ الأحـوال يقود الذِّهن إلى افتراض السُّؤال

بعد بيان شديد حال أهل النّار فيها، وأنَّها مأواهم، فلسائلٍ أن يسأل: تلكَ النّارُ الَّتي أصبحتْ مقرًّا لهم، هل يُفتَّرُ عنهم عذابُها؟ فجاءَ الجوابُ على طريقة الاستئناف البيانيِّ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾، فهم في كلّ ساعةٍ في زيادة؛ لأنَّها كلَّما أخذَ لهبُها في السُّكونِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 505.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 463.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (جهنَّم)، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517.
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517.

عندَ إنضاجِها لجلودِهم، زدْناهُم بما لنا من العَظَمةِ بإعادةِ الجلود، ليُعاودَهمُ العذابُ مرَّةً إثْرَ مرَّة، دونَ انْقطاع[1]؛ والمعنى: "كلّما سكن لهيبُها، بأن أكلت جلودهم ولحومهم، ولم يبق ما تتعلّق به وتحرقه، زدناها لهبًا وتوقُّدا، بأن نُعيدَهم إلى ما كانوا عليه، فتستعر وتتوقّد ... وعن ابن عبّاس رضى اللّه عنهما أنّه قال: إنّ الكفّار وقودُ النّار؛ فإذا أحرقتهم ولم يبق شيءٌ؛ صارت جمرًا تتوهّج، فذلك خبوّها، فإذا بدّلوا خلقًا جديدًا عاودتهم"[2].

براعةُ استعمال لفظ ﴿كُلَّمَا﴾ في إثبات دوام العذاب:

غايةُ التّهكُّمِ بأهلِ النّارِ إطماعُهم المُسفرُ عن الخيبة السّاحقة

لمّا جعلَ اللّهُ تعالى ازْديادَ السَّعيرِ مُقترنًا بكلِّ زمانٍ من أزمنةِ الخُبوِّ بقولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا﴾ الّتي هي بمعنَى: كلِّ زمان، وهذا في ظاهرِه إطْماعٌ بحصولِ خَبْوٍ، لورودِ لفظِ الخَبْوِ في الظّاهر، ولكنَّه يؤولُ إلى يأْسٍ منه، إذ يدلُّ قولُه: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾، على دوامِ سعيرِها في كلِّ الأزمان، لاقْترانِ ازديادِ سعيرِها فيهم بكلِّ أزمانِ خَبْوِها، فهذا الكلامُ من قبيلِ التَّمليح، وهو مثل قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40][3].

وزيادةُ العذابِ هنا تكون بعد الإفناء؛ أي: لا يزالونَ على الإفْناءِ والإعادةِ والإسْعار؛ ليزيدَ ذلكَ في تحسيرِهم على تكذيبِهم؛ ولأنَّه أَدْخلُ في الانْتقامِ من الجاحد[4].

بلاغة المجازِ في لفظِ ﴿خَبَتْ﴾:

بعضُ الظُّنون تأتي بالعذابِ لأصحابِها وتوردُهم المهالك

قولُه تعالى: ﴿خَبَتْ﴾ مَجازٌ عن سكونِ لَهَبِ جهنَّم مقدارَ ما تكونُ إعادتُهم، كأنَّهم لمّا كذَّبوا بالإعادةِ بعدَ الإفناءِ، جعلَ اللّهُ جزاءَهم أنْ سلَّطَ النّارَ على أجزائهم، تأكلُها وتُفنيها ثمَّ يُعيدُها[5]، وفي هذا

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 218.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 116.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 116.

السّكون مزيدُ عذابٍ، لما يظنُّه المُعذَّب من أنَّ النّار ستخبو وتذهب، فيكون ضدُّ ظنِّه زيادةً في العذاب.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الزّيادةِ إلى ضميرِ العظمة:

بـيـانُ عـظـيـم غضب الله على المُكذّبين الضّالين

أُسند فعلُ الزّيادةِ ﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ إلى الضّمير (النّون)، للتّعبيرِ عن عظمةِ مَن أُسنِدَ إليه فعلُ الزّيادة، وهو اللّهُ ﷻ؛ أيْ: زِدْناهم بما لنا من العَظَمة[1]، ولم يُبْنَ للمفعولِ زيادةً في تهويل الأمر، ولبيان عظيم غضبِ الله عليهم، فهو ﷻ الّذي يتولّى زيادةَ عذابِهم في الآخرة.

سرُّ إيقاع الفعل على أهل النّار لا على النّار:

زيـادةُ أهـلِ الـنّـار سـعـيرًا بـاعـتـبـارِهـم مـقـصـود التّسعير وغاية التّعذيب

آثر النَّظم الكريم أن يقع فعل زيادة السّعير على أهل النّار لا على النّار نفسِها في قوله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾، فلم يَقُل: (زِدْناها سَعيرًا)، والنّار هي الّتي تُسعَّر، وذلك لبيان أنَّ تسعير النّار هم مقصودُها، فما سُعِّرت النّار إلّا لأجلِ أصحابِها، فعلى المآل هم الّذين زادهم الله سعيرًا، وزيادةُ العذابِ هنا تكون بعد الإفناء؛ أيْ: لا يزالونَ على الإفناءِ والإعادةِ والإسْعار؛ ليزيدَ ذلكَ في تحسيرِهم على تكذيبِهم؛ ولأنَّه أَدْخلُ في الانْتقامِ من الجاحد[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّلالُ والغيُّ:

الـضَّـلالُ أوسـعُ دلالـةً وأَبْـلَـغُ من لفظ الغَيِّ

أصلُ الضَّلالِ: الهلاك، ومنه قولُهم: ضلَّتِ النّاقةُ، إذا هلَكتْ بضياعِها، قالَ تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السّجدة: 10]؛ أيْ: هَلَكْنا بتقطيعِ أوصالِنا، ويُقالُ أيضًا: ضلَّ عن الصّواب، ومنه قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: 74]، وأَصْلُ الغَيّ: الفساد، ومنه يُقال: غَوى الفصيل، إذا بَشِمَ[3] من كثرةِ شُربِ اللَّبن، وإذا لم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 517.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 116.

(3) البَشَمُ: التُّخمة، يُقال: بَشِمَ من الطَّعام، وبَشِمَ أيضًا من فُلان، وأيْ: سَئِمَ منه.ابن منظور، لسان العرب: (بشم).

يَرْتو من لبنِ أُمِّه فماتَ من الهُزال، فالكلمةُ من الأَضْداد، فالَّذي يوجِبُه أصلُ الكلمَتَيْن أن يكونَ الضَّلالُ عن الدّين أبلغَ من الغَيِّ فيه، ويُستعمَلُ الضَّلالُ أيضًا في الطَّريقِ كما يُستعمَلُ في الدّين، فيُقالُ: ضلَّ عنِ الطَّريقِ إذا فارقَه، ولا يُستعمَلُ الغَيُّ إلّا في الدّين خاصَّة، فالضَّلال أوسع دلالةً من الغيِّ؛ لاشتماله على الغيِّ وزيادة، ورُبَّما اسْتُعمِلَ الغَيُّ في الخَيبَة، يُقال: "غوى الرَّجُلُ"؛ إذا خابَ في مطلبِه.

(خبَتْ) و(انْطَفَأت):

الخَبْوُ سكونُ اللَّهَبِ، والانْطفاءُ ذهابُ النّار بالكُلّيّة

خَبَتِ النّارُ: سَكنَ لَهَبُها؛ أي: أخذَ لَهَبُها بالسُّكون، وطَفِئت، وصارَ عليها خِباءٌ من رَماد؛ أيْ: غِشاء[1]، وطَفِئَتِ النّارُ تَطْفَأُ طُفوًّا وانْطَفأتْ، وأنا أَطْفَأْتُها[2]، فالخبو انطفاءٌ نسبيٌّ، والنّار إذا خبت لا يعني أنّها انطفأتِ انطفاءً تامًّا، وإنَّما يعني أنَّها قاربت على الانطفاء، أمّا الانطفاء، فهو الانطفاء التّامُّ الّذي لا يبقى بعده ارتفاعٌ للنّار.

(1) الرَّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خبا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (طفو).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»